تصحيح الامتحان الوطني الدورة العادية 2017 في مادة الفلسفة (منهجية القولة)

إن الإنسان ككائن واع و مفكر و منتج داخل وسطه أو مجتمعه ، يعيش وفق ظروف قد تسلبه حريته ، بل قد يعيش بدونها مقيدا بقوانين خارجية متعالية على إرادته و توجهه ؛ في نفس السياق تنصب القولة التي بين أيدينا التي تندرج ضمن مجزوءة الوضع البشري معالجة مفهوم الشخص في محوره الشخص بين الضرورة و الحرية ، حيث تجرد الإنسان من تلك الحرية و تعتبرها ليس ملكا له مما يدفعنا لبسط الإشكالية التالية :

- أليست الذات سيدة نفسها و أفعالها ؟
- هل يعيش الإنسان في خضوع و إكراه فعلا أم يرقى إلى سلم الحرية ؟
- إن كان حرا فما طبيعة حريته بمعنى آخر هل تلك الحرية مطلقة أم نسبية ؟

تنفرد القولة بأطروحة مفادها أن الشخص لا يعيش في حرية و لا يمتلكها أبدا، بل لا وجود أساسا لحرية إنسانية ، و معنى ذلك انه يتخبط في جملة من الاكراهات و الاشراطات التي تفقده استقلاليته في الاختيار و التصرف بتلقائية و عفوية ، حيث يظل وسط هالة من وسائل التحكم عن بعد ليس له فيها أدنى انفلات أو ابتعاد ٠

فانتماؤه للطبيعة لم يعطه ملكة الحرية ، لم ينعم بحياة حرة خالصة كونية تتلاءم مع إرادته و مجهوده في تحقيق أهدافه و مصالحه ، فتعرضه لكل هذه العوائق يقلص من تأثيراته و يصبح دائما مسيرا في الأشياء التي تخصه ، اي بمثابة قلم يكتب وفق تحركات اليد ٠

و تحمل القولة في طياتها بنية حجاجة قوية و متكاملة ، تتجلى في توظيفها لأسلوب النفي المتمثل في الأداة "لا" ، وهذا دليل على قيمتها و عمقها و بعدها الراقي في الإحاطة بمحاور التفكير، على اعتبار أنها توضح استحالة وجود الحرية بشكل مطلق ٠

و قد أثار هذا المفهوم - الذي هو حرية الشخص- فضول الفلاسفة و المفكرين، حيث عمد كل واحد منهم إلى إبداء موقفه الخاص من هذا الموضوع ، بذلك أكد الفيلسوف اسبينوزا أن الحرية ليست إلا وهم ، فالناس يعتقدون أنهم أحرارا لجهلهم بالأسباب و العلل الخفية الكامنة وراء أفعالهم حتى لو كان لهم وعي بشهواتهم " تلك هي الحرية الإنسانية التي يتبجح الكل بامتلاكها ، و التي تقوم فقط في واقعة أن للناس وعي بشهواتهم و يجهلون الأسباب التي تحددهم حتميا" ؛ و يقدم مثالا صريحا للحجرة المتحركة التي تتدحرج بالضرورة بسبب خارجي بدون وعيها و إدراكها له ، نفس الشيء ينطبق على الطفل عندما يشتهي الحليب فهو يجهل الغريزة المتحكمة فيه ألا و هي غريزة الأكل ، و يظن كل الظن انه يريد ذلك بنفسه ٠

تأكيدا للموقف السابق يفيد رائد مدرسة التحليل النفسي سيغموند فرويد أن الجهاز النفسي للإنسان يشكل قوة طاغية لا يمكن دفعها أو درءها ، إذ أن الذات تكون دائما موطن صراع و لا تعيش لحظات هدوء و حرية في التقرير و الاختيار ، فاللاوعي يوجه دوما الوعي " إن الأنا مضطر أن يخدم ثلاثة من السادة الأشداء و هو يبذل قصارى جهده للتوفيق بين مطالبهم " ٠

تلك المعركة الداخلية التي يقودها كل من الهو و الأنا الأعلى ثم العالم الخارجي ، فالأول هو جانب فطري لا شعوري مكون من الدوافع الطبيعية و الرغبات المكبوتة و اللذات التي تحتاج للإشباع ولا تقبل التأجيل ، اي بمثابة طاقة ليبيدية ، أما الثاني فيجسد جانب الضمير الخاص بالأخلاق ، و يعبر كذلك عن القيم الحضارية للمجتمع و يحكم ما يجب أن يكون ، إذ يرصد اختلال السلوك و يعمل على تقويمها ، أخيرا نجد العالم الخارجي الذي يمثل الواقع ، اي النسق العام الذي نعيش في كنفه ، يا لها من مهمة شاقة و عصيبة يخوضها الأنا في التوفيق بين هذه المطالب المتعارضة ! فهو يعمد إلى تبرير أخطاء الهو و التستر عليه و يسارع في تهدئة غضب الأنا الأعلى القاسي الذي يعاقبه بمشاعر الذنب و الدونية ، فضلا عن السهر على التلاؤم مع الواقع و قواعده ، فبمجرد اختلال التوازن تقع الشخصية في الاضطراب ، و بهذا المعنى أن الإنسان غير قادر على الفرار من الحتمية السيكولوجية اللا شعورية المعقدة التي لا مجال لذكر الحرية في عقر دارها ٠

عكس كل هذا يذهب الفيلسوف الفرنسي سارتر إلى منحى التأكيد بأن الشخص يعيش بذاته و لذاته فهو كائن حر و مشروع منفتح على إمكانيات لا نهائية ، كيفما كانت دائرة الجحيم التي يعيش فيها فإمكانه تحطيمها و حتى إن لم يحطمها فوضعيته الجذرية هي الحرية ، إذن فهو مسؤول مسؤولية كاملة عن نفسه و عن الإنسانية الجمعاء و ما ينتقيه لنفسه يجب أن ينتقيه لجميع البشر – انه الخير- متجاوزا نطاق ذاتيته ٠
" فإذا كان الوجود يسبق حقيقة الجوهر ، فالإنسان إذن مسؤول عما هو كائن فأول ما تسعى إليه الوجودية هي أن تضع الإنسان بوجه حقيقته و أن تحمله بالتالي المسؤولية الكاملة لوجوده " ؛ ما نستنتجه أن بالنسبة لسارتر الحرية مطلقة بامتياز و وجودها يعطي معنى للعالم ٠

ختاما لمناقشتنا نخلص القول إلى أن الذات الإنسانية تتأرجح بين كفتي الحرية و الحتمية تريد ضمان فرصتها في الانتقاء و الاختيار ، غير أنها تفاجأ بوجود ظروف موضوعية قاسية تؤطرها و تفرض عليها الطواعية ، إذن فما عليها سوى السعي المنظم و المتواصل لتعديل تلك الشروط و تحقيق التوازن بينها نحو مزيدا من الاندماج والتحرر و التشخصن ٠